

الحياة الاقتصادية في دولة الموحدين

الباحث

عصام سمير فتحي دلول

الحياة الاقتصادية في دولة الموحدين

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

اهتمت حركة المهدي بن تومرت في قبيلة هرغة المصمودية من تأسيس دولة الموحدين لتشمل المغرب الأقصى والأوسط وإفريقية والأندلس، لكن بعد الانهزام في معركة العقاب سنة ١٢١٢م ضعف الموحدون وسقطت دولتهم على يد المرينيين سنة ١٢٦٩م.

قامت دولة الموحدين بعد سقوط دولة المرابطين، وكان المؤسس الفعلي لها هو محمد بن تومرت، وأول حكامها هو عبد المؤمن بن علي الذي أقام دولة قوية في بلاد المغرب العربي والأندلس، ثم تولى الحكم من بعده يوسف بن عبد المؤمن بن علي، ولم يكن على شاكلة والده، ثم تولى من بعده ابنه أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور، ويعد عصره العصر الذهبي، ثم تولى من بعده ابنه الناصر لدين الله الذي حدثت في عصره هزيمة المسلمين المنكرة في موقعة العقاب، والتي كانت السبب في سقوط الأندلس، ثم تولى من بعده ابنه المستنصر بالله، فكان عهده عهد سقوط الأندلس.

لقد اهتمت الدولة الموحدين بالنشاط الزراعي والصناعي والتجاري. ففي مجال الزراعة كانت أرضا زراعية بطبيعتها، لذلك اعتنى الأهالي بتربية الزراعة وإتباع طرق علمية معروفة في عهدهم مثل: استخراج المياه الجوفية، إقامة السدود، حفر القنوات والجداول للري. كما اعتنوا بتنوع المنتجات الزراعية والإكثار من البساتين والحدائق حول المدن ووسطها، حتى أصبحت المنتجات الزراعية والتجارية والصناعية والاسطول البحري، تفوق حاجة المواطنين، و إلى جانب الزراعة اعتنوا بتغذية الحيوانات والنحل حتى غدت من أهم موارد الدولة، و من أهم صادراتها للخارج.

اقتصاد الدولة الموحدية

كان في ازدهار وتقدم إذ كان لها حضورا اقتصاديا قويا في منطقة البحر المتوسط، وكانت لها مبادلات تجارية ومعاهدات كثيرة مع الدول الأوروبية ساهمت في انتعاش اقتصاد أوروبا خلال القرن السادس الهجري وما بعده كما ذكرنا في العدد السابق، وفي هذا العدد سنحاول تسليط الضوء على العلاقات التجارية بين المغرب والمشرق الإسلامي والتي شهدت ازدهارا واضحا لم تشهده البلاد منذ القدم، حيث كانت كل من مدينة الإسكندرية وتونس من أهم المراكز التجارية المغربية الشرقية، كما كان من أثر تقدم المسلمين في فن الملاحة ذلك التبادل والتواصل بين الشرق والأندلس فكانت "الأساطيل التجارية" التي ترسو في موانئ إشبيلية ومالقة ودانية وألميرية تنقل إلى جميع موانئ البحر الأبيض المتوسط محاصيل الأندلس ومنتجات مصانع المدن الأندلسية والمغربية، ونذكر على سبيل المثال أغطية جنجاله وسجاجيد بسطة، وفراء سرقسطة، وأواني مالقة الفخارية المذهبة، وحلي قرطبة المنقوشة وجلودها، وأسلحة طليطلة، وورق مالقة السميك^(١)؛ هذا النص يظهر بدقة أهمية التبادل التجاري الذي كان قائما بين الشرق والغرب الإسلامي إبان الحقبة الموحدية، كما أن "كتب الرحلات" المختلفة تبين أكثر مدى ازدهار هذا التبادل الذي زخر به العصر الموحي الزاهر.

اقتضت هذه العلاقات التجارية بين الغرب من ناحية والغرب الإسلامي من ناحية أخرى وبينهما وبين المشرق بوجه عام تنظيما لوجوه المعاملات المالية والتجارية، فعرفت الثغور الموحدية مثل الثغور المشرقية الأسواق المسورة والوكالات والفنادق التجارية، كما عرفت شخصية الوكيل التجاري الذي كان يتولى أمر مراقبة التجار لمعرفة ما عليهم من ديون، وكل ذلك في تخطيط محكم وتسيير منظم ينم عن مدى رُقي الدولة الموحدية في تعاملها مع الجانب التجاري كمجال يعتبر من المجالات الحية في تسيير المجتمع وتطوره وازدهار اقتصاده الذي يعتبر العنصر الفعال في تصنيف الدولة بين الدول المتقدمة.

للإشارة فإن الرحلات العلمية التي كان يقوم بها المغاربة والأندلسيون إلى السودان والمشرق لم تكن فقط بقصد طلب العلم وأداء فريضة الحج^(٢)، بل كان منهم من يسيح للتجارة في السودان ونواحيها مما ساهم في ازدهار ونمو التجارة الخارجية بشكل ملفت للنظر، عن طريق السياحة البحرية التي نشطت نشاطا كبيرا في هذا العهد بفضل جهود الموحدين في تطوير الأسطول البحري الذي كان أسطولا متميزا في ذلك العصر.

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، بيروت، ١٩٦٥، دار النفائس، ص٩١.

(٢) المراكشي :عبد الواحد ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص١٢٦.

التجارة عند الدولة الموحدية

وكان هؤلاء التجار العلماء يؤلفون كتباً عن رحلاتهم وما شاهدوا فيها حيث "نبغ عدد جم من الرحالين الذين أثبتوا مشاهداتهم وتأثراتهم في تصانيف قيمة، فالأندلسيين والمغاربة كانوا يشعرون بدافع شديد ينزع بهم إلى كتابة ذكرياتهم وتسجيل ما يختلج بأنفسهم عن رحلاتهم إلى المشرق بقصد طلب العلم وأداء فريضة الحج.."^(١) ولا يخفى على أحد أهمية كتب الرحلات التي تصور بدقة كل ما كان يروج في المجتمع، إذ الرحلة تعتبر وثيقة هامة يدور فلكها حول الحياة الاجتماعية والثقافية في ذلك العهد للبلاد التي مر بها صاحبها وزارها.

الصناعة عند الدولة الموحدية

في مجال الصناعة اعتنى الموحدون على الخصوص بصناعة المعادن والإنتاج الميكانيكي والفني، ولم يقتصروا اهتمامهم بتحسين الحالة الاقتصادية في المغرب فحسب بل سعوا إلى ازدهارها في الأندلس وإفريقية، وفي هذا الصدد يذكر عبد الواحد المراكشي أن الخراج بلغ في عهد الموحدية مائة وخمسين بغلا من إفريقية وحدها عدا بجاية وأعمالها، وتلمسان وأعمالها، وأن عبد المؤمن بن علي وجه همه لتشجيع الزراعة وإصلاح الحالة الاقتصادية ببلاد الأندلس^(٢)، وكان الازدهار الاقتصادي الذي عرفه الغرب الإسلامي في عهد الدولة الموحدية يعود إلى اتساع رقعتها واستتباب الأمن بها، وتشجيع التجارة والصناعة التي كانت تتمثل في إنتاج الأسلحة وفي البناء والتشييد ونشر الثقافة وغيره.

ومن أهم المدن المغربية التي كان لها شهرة واسعة بالصناعة مدينة فاس ومراكش وسلا، وسبتة السليبية التي كان بها مصنعا للورق حيث اشتهرت بورقها الذي ينسب إليها، كما كان بفاس مصنعا آخر لصناعة الورق، وكان لإنتاج الورق في عين المكان دورا في تيسير وسائل التأليف في جميع أنواع العلوم، وهو الأمر الذي ساعد على تمييز مدينتي سبتة وفاس من الناحية العلمية التأليفية، ولقد بلغت صناعة الورق الذروة في هذا العهد وكانت المعامل تنتج الورق الجيد في الوقت الذي كانت أوروبا تفتقر إلى معمل واحد للورق^(٣)؛ وتذكر المصادر المعتمدة أن مدينة فاس وحدها عرفت بالإضافة إلى صناعة الورق صناعات أخرى في زمن يعقوب المنصور الموحي منها على سبيل المثال لا الحصر: اثني عشر مصنعا للمعادن وثلاثة آلاف وأربعة وتسعين نولا للنسيج، وسبعة وأربعين معملا للصابون، وستة وثمانين مصنعا للدباغة، وثمانمائة وستة عشر مصنعا للصناعة، وأحد عشر مصنعا للزجاج، ومائة وخمسة وثلاثين مصنعا للجير.. الخ..

(١) المراكشي : عبد الواحد ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ١٢٧.

(٢) الفلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٥ م، ص ٤١٥.

(٣) الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق الجزء الخاص بالمغرب والأندلس، ص ٥٦.

أما بالنسبة للأندلس الرطيب فقد أقام بها الموحدون منشآت صناعية مهمة كإنشاء صناعة الحرير في مدينتي "المرية" و"جيان"، بالإضافة إلى أنواع النشاطات الأخرى التي كانت تمارسها وتبلغ (٨٠٠ مهنة) حسب ذكر بعض المصادر والمراجع التي أرخت لهذه الحقبة التاريخية، وحرص الموحدون على إنشاء معامل لصناعة الورق في كل من مدينتي "شاطبة" و"سبتة السليبية" في الوقت الذي عرفت أوروبا دخوله متأخرا إليها كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وفي ظل ازدهار الصناعة والتجارة كانت الأندلس تمد المغرب بالخشب والزرع وباقي المنتجات الصناعية المختلفة التي كانت تنتج وتصدر، بالإضافة إلى الواردات الشرقية التي كانت ترد عليها، فأصبحت بذلك المدن المغربية مجالا حيويا للصناعة الأندلسية المتميزة التي جمعت بين أصالة الشرق والغرب وخصوصا مدينة مراكش عاصمة الموحدين التي وصفها "اللّيون الإفريقي" بكونها أعظم مدن العالم في عصره.

ونحن نلامس بعض الجوانب الاقتصادية للدولة الموحدية تجدر الإشارة إلى شغوف الموحدين الأشاوس بالاختراعات الميكانيكية والهندسة الميكانيكية بصفة عامة، لذلك كان أهم شيء برع فيه أهل الصناعة في ذلك العهد هو الصناعات الميكانيكية، وتجلى ذلك في الآلات الحربية المتنوعة التي كانوا ينتجونها مثل المجانيق التي تدك الأسوار والخنادق، والأقواس البعيدة التي كانت تحمل على أحد عشر بغلا والتي اخترعها أحد المهندسين البارعين في عهد الخليفة يوسف^(١)، ومن ثم يمكن الجزم بأن عهد الموحدين كان عهد الصناعة التقنية والهندسية بكل أنواعها المختلفة، ومن بين الصناعات التي اعتنى بها الموحدون صناعة الأسلحة بجميع أنواعها إذ كانت في غايات الإتقان والتطور على عهدهم الزاهر حيث أولوها من العناية ما جعلها تزدهر وتتطور بسرعة فائقة، ولقد استفادوا من الحروب العديدة التي كانوا يخوضونها دفاعا عن حوزة الوطن الشاسع الذي كانوا يحكمونه، فاشتهرت الأندلس بصناعة آلات الحرب من الرماح والتروس والدروع إلى غيرها من الأسلحة^(٢) كما اشتهر أهل المغرب بصناعة التروس من الجلد على الطريقة الإفريقية، وسروج الخيل التي كانوا يضعون لكل سرج ثلاث طبقات من الجلد كل طبقة تعلق الأخرى والطبقة الوسطى أرقها، وكانت هذه الطبقات تصنع بطريقة بديعة، كما اشتهروا أيضا بصناعة الزرابي الجلدية الصغيرة والوسائد^(٣).

(١) الفلقشدي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٥ م، ص ٤١٦.

(٢) أحمد : المقري، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ج ١، ط ١، ١٩٤٩م، ص ٩٥.

(٣) ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر، ص ٤٩١.

ومن الصناعات التي بلغت شأواً عظيماً في عهد الدولة الموحدية صناعة السفن التي أنشأت معامل لها بكل من مدينة فاس وسلا والرباط مما ساهم في ازدهار الأسطول المغربي وشهرته عبر العالم، حيث اتفق المؤرخون بأنه كان أول أسطول عظيم يصل ويجول في حوض البحر الأبيض المتوسط دون اكتراث بخطر القراصنة الذين كانوا يهاجمون السفن في كل وقت وحين، ولقد اعتنى عبد المؤمن وأبناؤه اعتناءً كبيراً بالبحرية لما لمسوه من أهميتها ولم يقف بهم الحد عند انضمام البحرية المرابطية إليهم بل طوروها تطويراً يساير العصر الذي عاصروه، فكانت سفنهم على نوعين: نوع يستعمل لنقل الجند والمؤن إلى السواحل الأندلسية كما كان الحال في عهد المرابطين، ونوع يتألف من السفن البحرية الجاهزة.

تطور البحرية عند الموحدين

ما يذكره المؤرخون بكون الأسطول الموحدى بلغ أربع مائة سفينة ألفت مراسيها على جميع بلاده، منها مائة وعشرون سفينة بميناء "المهدية" ومائة سفينة بموانئ مدينة "سبتة السليبية" و"طنجة" و"الريف"، ومائة سفينة بسواحل إفريقية وثمانون سفينة بعدوة الأندلس، ومن أهم وأشهر الموانئ في ذلك العهد ميناء مدينة "قاديس" و"سبتة" و"باديس" و"وهران" و"طنجة" و"المهدية"^(١)؛ ولقد تجلت عظمة الأسطول الموحدى منذ عهد عبد المؤمن بن علي وابنه يوسف وظهرت قوته في المعارك البحرية التي نشبت بين الموحدين والكطلونيين على مقربة من مدينة "طرطوشة" بالأندلس بإقليم "كاتالونيا"، وفي موقعة "المهدية" التي كان يحتلها الرومانديون حيث تغلب الموحدون الأشاوس بقيادة أمير البحر الشهير عبد الله بن ميمون على أسطول النورمانديين الذي كان مجهزاً بمائتي سفينة والذي أظهر براعة في القتال، فأغرقوا أكثر سفنهم في البحر؛ ويعود هذا النجاح -كما سلف الذكر- إلى عناية عبد المؤمن بالجيش والأسطول وإنشائه للمدارس الحربية من أجل تكوين وتخريج الجند البواسل والقواد الأكفاء، وكان عبد المؤمن يحرص على جمع الشبان الذين ينحدرون من قبائل مصمودة لكي يضمن ولائهم للدولة ويحافظ على الروح العسكرية فيهم؛ وتذكر المصادر التاريخية أن المناهج الدراسية التي كانت تدرس بهذه المدارس تتضمن التدريب على استعمال الأسلحة على اختلافها، وركوب الخيل والسباحة وأساليب الحصار برأً وبحراً، وكأسلوب تعليمي تطبيقي أنشأ الموحدون على مقربة من مدينة مراكش بركة وضعت فيها القوارب والسفن الحربية الصغيرة المسماة سفن التدريب كان الطلبة يتدربون على متنها على التجديف وقيادة السفن وكل ما يتعلق بالفنون الحربية؛ وكان التعليم بهذه المدارس على حساب الدولة الموحدية بالإضافة إلى ما كان يحصل عليه الطلاب من الخيل والأسلحة والخبرة العسكرية^(٢).

(١) عبد الرحمن : بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخير في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج٦، طبعة بيروت، ١٩٥٦-١٩٥٩م، ص ٤٩١.

(٢) الفلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٥ م، ص ٤١٨..

الاسطول عند دولة الموحيدين

ومما يثبت قوة وعظمة الأسطول الموحيدي ما ترويه المصادر والمراجع عن استنجد القائد الباسل صلاح الدين الأيوبي ببيعقوب المنصور الموحيدي من أجل مساعدته على دفع خطر الصليبيين عن السواحل الشامية بواسطة أسطوله البحري الذي ذاع صيته في العالم، والذي كان الموحدون يعتنون بتطويره لاجتياز البحر إلى عدوة الأندلس في كل لحظة وحين دفعا لخطر النصارى الذي كان يحقق بهم وبأراضيهم وممتلكاتهم؛ ولقد دلل العلامة ابن خلدون هذا الفعل بتفوق ملوك المغرب على ملوك الشرق في إنشاء الأساطيل البحرية التي كانت تصول وتجول في عرض البحر الأبيض المتوسط دون خوف ووجل.^(١)

هذه بعض الخطوط العريضة للحياة الاقتصادية التي عرفتھا منطقة الغرب الإسلامي في عهد الدولة الموحدية والتي عرفت التجارة الواسعة واستغلال الثروات المعدنية، والاستفادة من الأساليب الصناعية الجديدة، وإنشاء الحواضر لتركيز الحياة الاقتصادية مما ساعد على انتشار الرخاء والترف داخل المجتمع المغربي والأندلسي، وحقق فعلا المجتمع النموذجي للدولة المتقدمة التي استطاعت بفضل كفاءة خلفائها وحسن تدبيرهم وحنكتهم تحدي العقبات التي واجهتها منذ تأسيسها.^(٢)

إن في هذا العرض الموجز لما حققته هذه الدولة الموحدية العظيمة في كل شيء سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية لعبر ودروس يمكن لنا أن نستفيد منها ونحاول من خلالها مد الجسور مع تاريخنا التليد، وحضارتنا الخالدة المشرقة التي تركھا لنا أجدادنا البواسل رحمة الله عليهم جميعا من أجل بناء حاضر مشرق ومشرف..

(١) عبد الرحمن : بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج٦، طبعة بيروت، ١٩٥٦-١٩٥٩م، ص٤٩٠.

(٢) الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق الجزء الخاص بالمغرب والأندلس، ص٥٧.

انتشار الدولة الموحدية

بلغت الدولة أوجها في عهد أبو يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن بن علي الكومي (١١٦٣ - ١١٨٤ م) ثم أبو يوسف يعقوب المنصور (١١٨٤ م - ١١٩٩ م) والذي تلقب بالمنصور وعمل على النهوض بالدولة الموحدية والأندلس علميا وثقافيا^(١).

وكان قائدا ماهرا وسياسيا قديرا استطاع عقد الصلح مع مملكة قشتالة. ولكن نقضهم للصلح اضطرته لقتالهم في معركة الأرك، مع بناء العديد من المدن الجديدة وتشجيع الثقافة والحياة الفكرية (ابن رشد، ابن طفيل). وقعت بعد ذلك معركة الأرك عام ١١٩٥م والتي انتصر فيها الموحدون على الملوك النصارين. في عهد الناصر (١١٩٩م - ١٢١٣م) تم القضاء على العديد من الثورات في إفريقية. وبعد موقعة الأرك عقدت هدنة بين ملك قشتالة الفونسو الثامن والمسلمين. ولكن الفونسو استغل الهدنة في تقوية بلاده ومحالفة أمراء النصارى. وحين وجد نفسه مستعدا أغار على بلاد جيان وبياسة وأجزاء من مرسية. فاضطر الملك الناصر "محمد بن يعقوب" الذي خلف والده المنصور في إفريقيا إلى الذهاب إلى الأندلس لغزو قشتالة. فعبّر البحر بجيشه وذهب إلى اشبيلية لتنظيم الجيش^(٢).

ومنها اتجه إلى قلعة "شلطيرة" إحدى قلاع مملكة قشتالة واستولى عليها بعد حصار دتم ٨ شهور. ولكن الملك الفونسو الثامن دعا البابا أنوسنت الثالث بروما إلى اعلان الحرب الصليبية ضد الأندلس. وكان من نتاج ذلك ان اجتمع للإسبان ١٢٤.٥٥٣ مقاتل انطلقوا ليستولوا على حصن رباح والأرك وغيرها. وقام المسلمون بجمع جيش مماثل والتقى الجيشان عند حصن العقاب إلا أن الموحدين تلقوا هزيمة قاسية على يد النصارين في معركة حصن العقاب سنة ١٢١٢م ولم تقم للمسلمين بالأندلس بعد هذه المعركة قائمة. وبعد سنة ١٢١٣م بدأت الدولة تنهوى بسرعة مع سقوط الأندلس في أيدي النصارين بعد عام ١٢٢٨م، وفي إفريقية سقطت (تونس) في أيدي الحفصيين، والمغرب الأوسط (الجزائر) في أيدي بني عبد الواد - الزيانيون - (١٢٢٩م - ١٢٣٦م). حكم بين السنوات ١٢٢٤م إلى ١٢٣٦م فرعين أحدهما في المغرب الأقصى (المغرب) والثاني في الأندلس. ومنذ ١٢٤٤م تعرضوا لحملة المرينيين، ثم فقدوا السيطرة على المغرب الأقصى وانتهى أمرهم سنة ١٢٦٩م بعد أن قضى عليهم المرينيون نهائياً^(٣).

١ (ابن الفراء، رسل الملوك ومن يصلح للسفارة، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة، ط٢، ١٩٤٧، دار النفائس، ص٢١٦.

٢ (ابن أبي زرع أبو الحسن علي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص٤٩.

٣ (ابن القطان، أبو الحسن علي بن محمد، نظم الجمان في أخبار الزمان، ص٦٩.

يتبين لنا من خلال النصوص التاريخية الانفة الذكر مدى اهتمام الموحديين بالحياة الاجتماعية اذ انهم استطاعوا خلق مجتمع موحد متماسك يسوده العدل والرخاء قادر على الابداع والابتكار في مختلف جوانب الحياة.

فاذن كان الجو العام الذي فتح عليه جميع شعراء وأدباء دولة الموحديين عيونهم – وكما رأينا في النقطة قبل هذه – جوا مشحونا بالحروب، أما مباشرة وعمليا، أو أهبة واستعدادا، حروب الغزو والفتح، أو التأديب والتهدة، عن جانب الدولة، وحروب التشويش وبعثرة الجهود وأحداث الشغب والانشقاق من جانب الغز المصريين، وعرب بني هلال بقيادة (شرف الدين الشرقية، أي لبيبا، وذلك تنغيصا على المسؤولين الموحديين راحتهم حتى لا يستمرئوا لذة النصر والاستقرار، وتتقيصا لنفوذهم حتى لا يشرئبوا لتحقيق ما كان يتطلع إليه ملكهم أبو يوسف من الرحلة إلى المشرق وغزو مصر لتطهيرها من المناكر والبدع، كما كان يقول: وقد ذكر المراكشي صاحب المعجم عند قوله: (أنا أن شاء الله مطهروها.....) قال: ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات سنة ٥٨٥ هـ. (١)

ثم كانت هناك حروب الانتفاضات والثورات من طرف بني عبيد في تونس أبناء ابن غانية الميورقيين في الجزائر، وحروب بعض المنتطعين الضالين من البيت المالك الذين انتقضوا أو أثاروا في نقاط مختلفة من بلاد المغرب والأندلس رغبة في الاستنثار بالحكم، والاصطياد في الماء العكر. (٢)

ولكن كان هذا الجو نفسه، وفي ذات الوقت من الجانبين الاقتصادي والاجتماعي مزدهرا رخيا نشيطا، تواصلت نعمائهم، وبشرت بالثراء الدائم أنواءه وتواصلت بالعطاء الثر انداؤه، لسعة رقعة الإمبراطورية الموحدية التي كانت تمتد مملكتها من طرابلس إلى المغرب إلى السوس الأقصى من بلاد المصامدة وأكثر جزيرة الأندلس، وكل هذه الأصقاع لا ينازعهم أحد، ولا يمتنع عليهم منها درهم ثم لسعة الخراج، وكثرة الوجوه التي تتحصل منها الأموال، فقد كان خراج إفريقيا أي تونس وحدها في كل سنة، وقر مائة وخمسين بغلا، خلا بجاية وأعمالها، وتلمسان وأعمالها، وخلا المغرب والأندلس. (٣)

قال صاحب المعجب: (وقد بلغني من جهة رجل من أصحابنا كان يتولى بيوت الأموال أنه وجدت خرائط كثيرة مما كان يرفع إلى أمير المؤمنين ابن يعقوب لختمها، قال: ولم تزل أيام أبي يعقوب هذا أعيادا أعراسا ومواسيم، كثرة خطب، وانتشار أمن، وذرور رزق، واتساع معاش).

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، بيروت، ١٩٦٥، دار النفائس، ص٩٠.

(٢) ابن الفراء، رسل الملوك ومن يصلح للسفارة، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة، ط٢، ١٩٤٧، دار النفائس، ص٢٢٠.

(٣) البكري: أبو عبيد الله، توفي سنة ٤٨٧ هـ، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والأندلس والمغرب، ص٥٥.

عاش المجتمع الموحدى حياة كريمة يسودها العدل والطمأنينة التي عمت ربوع بلادى المغرب والاندلس جميعها وهي حصيلة الجهود الكبيرة التي بذلها حكام الدولة الموحدية والمتمثلة بحرصهم الشديد على ان تعيش رعيتهم بأمن واطمئنان ورفاهية و السفارات ، مما يؤكد ذلك التوجهات السديدة التي كانوا يبذلونها الى عمالهم وولاتهم جميعهم ، يحثونهم فيها على مراعاة العدل والحكم بالحق بين الناس ومطاردة الظلم والولاية الظلمة والسماح لسكان بلاد الاندلس بعبور البحر وتقديم شكواهم الى الامير الموحدى بصورة مباشرة وكان الحكام الموحدون يجلسون للناس عامة فيسمعون منهم لا يحجبون عنهم صغيرا ولا كبيرا.(١)

وبسبب استحالة استمرار هؤلاء الحكام بالنظر في القضايا كلها بانفسهم لانشغالهم بآدارة الدولة المترامية الاطراف فانهم في الوقت نفسه كانوا حريصين على متابعة اعمال وولاتهم وسير قضائهم .

يذكر عبد الواحد المراكشى ان الامير يعقوب المنصور كان اذا وفد عليه اهل بلد فاول ما يسالهم عن عمالهم وقضائهم وولاتهم فاذا اثنوا خيرا قال اعلموا انكم مسؤولون عن هذه الشهادة يوم القيامة فلا يقولن امرؤ منكم الا حقا .(٢)

وقد حرص ولاة الامر في الدولة الموحدية على تقليل الفوارق الطبقيه بين جميع طبقات المجتمع من خلال الاوامر التي كانوا يصدرونها للناس بتجنب ارتداء الثياب الحريرية الغالية الثمن وحثهم على لبس البسيط منها وزيادة على ذلك امروا الشرطة بالقبض على المغنيين الذين يتداولون اللهو وبذلك خلت البلاد منهم وكان هدف الموحدين من وراء هذه الاجراءات هو اشاعة التمسك بالقيم الدينية والتقرب الى الله والابتعاد عن كل ما يسيء الى قيم السماء وشريعته السمحاء ومن ثم تامين الحياة السعيدة الكريمة لمختلف طبقات المجتمع.(٣)

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، بيروت، ١٩٦٥، دار النفائس، ص٩١.

(٢) البيهقي، أبو بكر بن علي الصنهاجي، كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، ص٢٩.

(٣) أحمد : المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ج١، ط١، ١٩٤٩م، ص٩٦.

ولا شك أن هذا الرخاء العظيم كان يعم سائر طبقات الأمة، ويشمل كافة أفرادها، ولتحقيق هذا التعميم، وإبراز هذه الشمولية، كان ملوك دولة الموحدين، يلتزمون – كلما تعمّدوا بالخروج إلى غزوة – توزيع مبالغ مالية ضخمة لا يقل مقدارها – فيما تتحدث عنه كتب التاريخ- عن أربعين ألف دينار، كانوا يوزعونها على مختلف الطبقات الشعبية.^(١)

وقد دفعتهم الرغبة في إشاعة الرخاء وتعميم النعماء أن قسموا مدينة مراكش عاصمتهم أرباعاً، وجعلوا في كل ربع أمناء، معهم أموال يتجرون بها المساتير وأرباب البيوتات.

وكانوا كلما دخلت السنة يأمرّون أن يكتسب الأيتام المنقطعون فيجمعون إلى موضع قريب من القصر فيختنون ويعطى كل صبي مثقالاً ونوباً، ورغيفاً ورمنة، وربما زيد على المثقال درهمين جديدين.

وفي هذا المناخ الرخاء، وهذه السعة في الأرزاق، والكرم العام الشامل، لا غرابة أن تختفي الدولة رجالات الثقافة والفكر والأدب والشعر، وأن تقام لمرتادي هذه الميادين الإنسانية، الموازين، وأن يعار أصحابها المزيد من العناية والاهتمام.^(٢)

وكانت الضمانة الوحيدة لتوفير ذلك الرخاء وتعميم ذلك الازدهار الجهود الجبارة المبذولة لحماية الثغور، واتخاذ المواقف الحاسمة ضد أعداء الدين.

وكان الاحتفاظ على مستوى الحياة اللائق الكريم يعتمد أساساً على عنصرين اثنين:

الأول: المغانم والاسلاب التي كانت تدرهما غزوات المسلمين في أراضي العدو وبجزيرة الأندلس، ومطاردة قرصنة البحر الأوروبيين.

الثاني: الاستقرار الداخلي، الذي وحده يستطيع أن يمد الحياة الاقتصادية لامة ما بعناصر الانتاج، وروافد الانماء، وكانت دولة الموحدين – في كل حركاتها وأهدافها – لا تسير الا في سبيل ما يضمن ويحقق دينك العنصرين معا.

فمن الانهزامية إذن، ومن التخلي عن الشكر، ومن الرفض الشنيع للواجب أن يفكر الشعراء والأدباء في تناول غير هذه المجالات الأدبية والحاسمة التي تسهر الدولة على توفير أسبابها واستمرار عطائها.^(٣)

(١) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٥ م، ص ٤١٦.

(٢) ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي أبو الفرج ٥٩٧ هـ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٥، دار الفكر، ص ١٥٩.

(٣) عبد الملك : ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي، ط: دار الغرب الإسلامي، ص ٨٤-٨٥.

وهكذا فنحن حين سنتناول بالتحليل – إن شاء الله – آثار من اعتبروا شعراء هذه الدولة الرسميين – أي ابن حبوس – الجراوي- وأبا حفص عمر، ومحمد العابد الفاسي مع تجاوز، سنلمس هذا التجاوب العجيب الفريد الذي كان قائما – حسب الأشعار – وموجودا بين هؤلاء الشعراء وبين المناخ العام الذي كانت تسهر دولة الموحدين على توفيره لجميع رعاياها ومواطني امبراطوريتها الشاسعة الاطراف.^(١)

فقعقة الألفاظ، والإغراق، والغلو، في لوصاف أعمال الدولة الحربية والإعجاز اللذان نجدهما في آثار أولئك الشعراء إنما هما تعبير حي يجسم حب الدولة للقوة، وتعلقها بأبهة الملك والسلطان، وإشادة أولئك الشعراء بالانتصارات الحربية التي كانت تحققها الدولة ضد النصارى، وضد الثوار، وضد المتربصين بها الدوائر، وانما هي شواهد ناطقة برغبة رعاياها في مواصلة النضال من أجل العزة والكرامة، والتفوق، وتلك النفحات الروحية والقلبية، والخلجات النفسية التي تعزز عليها بين الحين والآخر في ثنايا آثار أولئك الشعراء، وعندما ينكفون على أنفسهم ينجونها، وعلى أفكارهم الخاصة يداعبونها، هل هي الا صدى شهى ورجع حبيب لما يحسونه من زهو بازدهار أمنهم اقتصاديا، ورفع مستوى حياتها اجتماعيا؟.

ثم اليس هو في نفس الوقت تسجيلا لما يحسونه من طمأنينة على هذه الحياة وعلى المستقبل المأمول؟ وتعبيرا عما يجدونه من نعمة الرعاية والاهتمام.

ذلك لان الشعراء – كما نقرر دائما لو هكذا ينبغي أن يكونوا – إنما هم في الحقيقة والواقع الصدى لما يحسه مجتمعهم خيرا أو شرا، ازدهار أو كسادا، شهرة أو خمولا، وهم بالتالي مرايا تعكس صور ذلك المجتمع بكل اخلاصه الفاضلة ومبازل الرديئة، وبكل معتقداته وأوهامه.

وحين يحسن الشاعر التعبير عن هذا المجتمع وبأسلوبه الخاص... يكون هذا الشاعر قد أدى مهمته خير أداء وقام برسالته أفضل قيام، ولن يكون من حق أحد حينئذ أن يطالب الشعراء بأن يسلكوا هذا النهج دون ذلك لو أن يعالجوا هذه القضايا دون تلك، لان الزوايا التي يحتلها الواحد منهم هي قطعا غير تلك التي يحتلها الآخر، ولان المؤثرات والرسوبات التي عملت أو أسهمت في تكييف نظرة لك الواحد إلى الحياة والناس والمجتمع الذي يكونانه هي بدون ريب غير تلك التي قولبت هذا الآخر، ومن ثم فان المجاهر التي ينظران بها إلى الأحداث لا يمكن أن يكون عدساتها من حجم واحد حتى من حيث الصفاء والدقة، وصدق الله العظيم " ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة" وما يزالون مختلفين....سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا".^(٢)

(١) ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر، ص ٤٩١.

(٢) ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي أبو الفرج ٥٩٧ هـ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٥، دار الفكر، ص ١٥٩.

الخاتمة

و أخيرا يمكننا القول أن الحالة الاقتصادية و التجارة و الصناعة ، و البحرية ، للدولة الموحدين في أغلب فتراتهما تميزت الحروب و المعارك .

إضافة إلى ذلك الفتن الداخلية التي لا تكاد تنطفئ حتى تشتعل مرة أخرى لأسباب كثيرة منها التنافس على العرش الذي كان قائما على أشده بين أفراد الأسرة الحاكمة .

و لكن بالرغم من ذلك كانت الحالة العلمية و الفكرية قد أخذت منحأ آخر ، إذ كانت نشطة جدا ، و قد ظهر في عهد الدولة الزيانية نخبة من العلماء الذين تركوا تراثا علميا توارثته الأجيال ، و بقي تأثيره على الحركة العلمية في خارجها طيلة قرون .

و باختصار فالدولة الموحدين حافظت على كيانها ما يقارب ثلاث قرون فكانت بذلك ثالث دولة إسلامية عظمت في الجزائر .

الموحدين في تطوير الدولة المغربية سياسيا وفكريا، لكن بعد انهيار الموحدين ضعف الغرب الإسلامي وسقطت بلاد الأندلس.

تم بحمد الله

قائمة المصادر

ابن الأثير ، علي بن ابي كرم الشيباني (ت ٦٣٠هـ / ١٢٨٨م)

١- الكامل في التاريخ ، ج ٢ ، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري ، (بيروت ، دار

النفائس ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م)

ابن أبي زرع أبو الحسن علي ، (٧٢٦هـ / ١٣٢٦م)

٢- الأتيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ،

ج ١ ، دار الفكر ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م)

ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي أبو الفرج (ت

٥٠٨هـ / ١١١٦م)

٣- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، طبعة بيروت ، ١٩٥٦-١٩٥٩م)

ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع البغدادي (٢٣٠هـ / ٨٤٥م)

٤- الطبقات الكبرى ، تحقيق : سامي محمد سعدي ، (بيروت، دار صادر ١٤١١هـ

/ ١٩٩١م)

ابن عذاري المراكشي ، عبد الواحد ، (٦٤٧هـ / ١٢٥٠م)

٥- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق : عبد الرحمن الرملاوي ، دار

العلوم ١٩٩٠م)

ابن القطان، أبو الحسن علي بن محمد، (ت ٩٥٣هـ / ١٤٥٥م)

٦- أبو الحسن علي بن محمد، نظم الجمان في أخبار الزمان ، دار الفكر ١٩٩٥.

ابن الفراء، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن أحمد (ت ٤٥٧هـ / ٨٦٥م)

٧- رسل الملوك ومن يصلح للسفارة ، ط٢ ، دار الصفاء ، ١٩٨٨

المقري ، أبو العباس أحمد ، (ت ٨٦هـ - ١٠٤١هـ / ١٥٧٨ - ١٦٣١م)

٨- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب،

تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ج ١، ط ١، ١٩٤٩م)

الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد، (ت ٥٥٩هـ - ١١٦٦م).

٩- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق الجزء الخاص بالمغرب والأندلس، ج ٢، دار الفكر
١٩٨٥

البكري أبو عبيد الله ، (ت ١٠٩٤ / ٤٨٧هـ)

١٠- المغرب في ذكر بلاد إفريقية والأندلس والمغرب ، ط٢ ، دار السلام للنشر و

التوزيع ، ١٩٩٢

البيدق، أبو بكر بن علي الصنهاجي (ت ٤١٦هـ / ٩٠٥م)

١١- كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، ط ١، دار الصفا للنشر

و التوزيع ، ١٩٤٦

عبد الملك ابن صاحب الصلاة ، (ت ٥٦٣هـ - ١١٦٨م)

١٢- المن بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي، ط ١ ، دار الغرب

(الإسلامي، ١٩٧٩)

القلقشندي ، أبو العباس القلقشندي (٧٥٦ هـ / ١٣٥٥ م - ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م)

١٣- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر،

(١٩٨٥ م)

تم بحمد الله